رأي الأستاذ توحيد السلحدار

في كتابي: «الوعي القومي» و«دراسات عن مقدمة ابن خلدون»

أهدى أحد الفضلاء في لبنان هذين الكتابين القيمين إلى صديقنا الأستاذ الكبير محمد توحيد السلحدار، فلما قرأهما كتب إليه كتاباً جاء فيه:

ذكرتُ في بعض ما كتبت «للرسالة» أن من أصحاب الفكر والذوق للمعاني مَن قال: إن الثقافة وعي أطراف صالحة من أثمار العقول، العلمية والفنية والأدبية، بها يلتفت المثقف إلى المبادىء والأسباب والقوانين، ويرشد قومه إلى الأصلح لحالهم، والأنفع لترقيتهم، والأخلق بالإنسانية

وكتاب «الوعي القومي» لبادعه الفاضل، الدكتور قسطنطين ذريق، أستاذ تاريخ الشرق بالجامعة الأمريكية في بيروت، ثمرة شهية من أثمار الثقافة الجدية، ومثال رائع يتجلى فيه معناها

هو كتاب يبيّن حال الشرق العربي الحاضرة بمُجرها وبُجرها، ويعرف وسائل التخلص منها، ويهديه - إذا هو أراد أن يهتدي - سبل الأهداف والمثل العليا والحياة بين الأحياء، ويحثه على سلوكها

ولقد جمعت أجزاءه ووحّدت توجيهاته الحكيمة فكرته الأساسية مركّزة في عنوانه المحكَم البليغ، معرفة على كلامه السهل الممتنع الرفيع من أول البحث إلى آخره، حيث هدأ القلم، وحيث تفجّرت من سنّه حرارةُ وطنية وعاطفة إنسانية

قوّاه صاحبه بروحه العلمي ووضوح حجته، وجمّله بنور بصيرته وبراعته الكتابية وبكياسته في التمهيد للنقد وبيان العلل، ولطف مدخله في النصيحة. وقد شف كلامه عن عمق إيمانه بحقائق دعوته، وحبه البين لأثمار العقول، حبّا يُكسب تلك الثقافة التي وصف، وكلما أحرزنا حظاً منها تكشّفت لنا الأهداف القومية والمثل العليا التي لم يتورط في تعريفها الآن، لحكمة لم يرد بعض النقاد أن يدركها

أضف إلى ذلك فضل أخلاقه الكريمة من عفة لسانه في صراحته، ومن نزاهته عن التعصب والتحزب، وصدقه وإخلاصه في الدعوة للوعي القومي، وكرامته وتواضعه تواضعاً يهبه العلم والأدب والتربية

استقصى واستوعب، وشخّص الداء ووصف الدواء، شارحاً دعوته في إيجاز نير، حتى يرى مَن لا يرى، ويعلم مَن لم يعلم، ويفهم من لم يفهم، ويعمل من لا يعمل على مصلحة قومه

«في الوعي القومي» آية للزمان ومدعاة إلى الاطمئنان على مستقبل نتمناه، سواء أكان بعيداً كل البعد أم قريباً كل القرب

من أجل ذلك كله قد لا أكون مبالغاً إذا أنا زعمت أن هذا الصنيع الأساسي النفيس، المبتكر بوحدته وتميزاته وصرامة وظهوره في الشرق العربي في إبّان الحاجة إليه، هو أجل كتاب بين الكتب العربية التي وضعت منذ أطفأ الدهر نور هذا الشرق

***

أما الأستاذ الكبير، ساطع بك الحصري، فقد أبدع كذلك في «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» إذ جاءت مصداقاً لتقريره «أن الطرافة في الدراسات لا تتأتى من جدة الموضوع وحده، بل قد تتولد من طرافة الطريقة والاتجاه أيضاً»، فإنه خدم قومه باتجاهه العلمي، وعرف الأصول التي اهتدى بنورها في دراسة المقدمة، وكان البادىء في العربية بدراستها على الطريقة العلمية فيما أعلم

ذكر، مثلاً، أن كل عالم ومفكر يشاطر بوجه عام معاصريه أكثر أخطائهم، ولذا فإن منزلته «لا تتعين بملاحظة جميع الآراء الصائبة والخاطئة المبثثة في كتاباته ومؤلفاته المختلفة، بل تتقرر بملاحظة الآراء المبتكرة التي يسمو بها على معاصريه، والحقائق الجديدة التي يضيفها إلى المكتسبات الفكرية البشرية، والخدمات التي يقوم بها بهذه الصورة في سبيل تقدم الأفكار والعلوم»؛ وعرّف طرائق النقد الداخلي والنقد الخارجي والنقد التفسيري؛ ولاحظ أن مباحث المقدمة قسمان: «المباحث الأساسية... تحوم حول علم العمران وأسس التاريخ مباشرة»، و«المباحث الاستطرادية التي تأتي تمهيداً للأبحاث الأصلية أو إتماماً لها»؛ وأن عمل ابن خلدون في هذه «لا يتعدى حدود النقل والجمع، والعرض والتلخيص، والترجيح والتسجيل؛